## امرأتان

شرخ فى جدار غرفة السطح المهترئة البناء ·· الشرخ غائر بمضى الأيام يزيد عمقا واتساعا ·· فى الغرفة امرأتان ·· الأم وابنتها ·· قمران الا من لفحات الأيام ونكبات الزمن ·· وحيدتان بلا رجل ·· قتل الأب فى حادث فترملت الأم ·· الابنة اليتيمة بلا زوج ·· الا أن بطنها منتفخة أمامها كالقدر !

··· تتنفس بصعوبة فالحمل ثقيل ·· فقط تئن أنات مكتومة ·· ليس بمقدورها أن تصرخ ·· فالصراخ مستحيل ! ·· تلف وتدور منفوشة الشعر ·· تتلوى وتترنح زائغة العينين ·· تتساند على الأشياء ·· تقعد لحظات على أريكة مهلهلة ثم تعود لحركتها الدائبة ·· لا تدعها الآلام ·· ألم فى القعود ·· ألم فى الوقوف ·· ألم فى كل حركة وكل سكنة ·· التعبيرات فى ملامحها تؤكد معاناتها من آلام جسدية ونفسية ·

زحف الليل الجليل .. أوقدت الأم مصباح الغاز .. بدا الضوء باهتا وبدت الغرفة كئيبة .. الليل ستار بظلامه .. الليل أيضا فضاح بسكونه وهدوئه .. قد تنفلت صيحة تشق السكون وترن فى المسامع .. الموت أرحم من أن يسعى أحد لنجدتهما .. الليل لباس لكل الناس .. الكل نيام .. وهما ساهرتان .. يقظتان .. الرياح تهب .. أسواطها تهرى جدران الغرفة العارية .. أصواتها أيضا ستارة .. تذوب فيها الصرخات .. ومن يضمن .. ان للحيطان آذانا تصيخ السمع .. قامت الأم تقطع الشك باليقين وتغلق النافذة والباب المتداعيين .. الأم والابنة .. كل تلوم نفسها .. كل تلوم الأخرى وتتهمها.. الاثنتان خائفتان من المجهول المرتقب .. عيناهما تتبادلان كلام وكلام .. ذبالة المصباح تتراقص .. أهداب عينى الأم تهتز .. تشيح بوجهها متحاشية نظرات ابنتها اللائمة .. تطأطىء رأسها .. لعلها تدرى تعبير الندم .. أو أنها تسلم بمسئوليتها عن الفضيحة .. ولعلها تخفى دمعة ألم حارة .. لن تلطف الدموع من لوعتها .. أيضا لم يفلح البرد فى تهدئة الانفعالات الملتهبة .. فاض العذاب النفسى على كاهل الأم .. ضيعها وهد كرامتها .. تهالكت منزوية فى أحد الأركان لتكون فى مأمن من نظرات ابنتها القاسية .. وجه الابنة فى الضباب .. الأم لا ترى عينى ابنتها .. شعاعها شواظ يحاصرها .. الموقف أقوى من تحملها .. لتفر من هذا الحاضر الكريه .. تطل فى عينى الماضى العميقة .. العربة تزمجر .. تنفث دخانا أظلم بياض النهار .. صوتها يرسل الرعب .. زعيق « فراملها » يرج كيانها .. ها هى تشق الزحام تفتش بين الأجساد .. تتلفت فى الوجوه المذهولة .. نظرت الى حيث يحدقون .. وقعت عيناها على جثة زوجها .. برزت عيناه من شدة الفزع .. أو من ضغط الفرامل ..

سحقته العجلات ·· دارت الدنيا وماجت فى عينيها ·· كل الدنيا عيون فزعة ·· دامية ·· غامت عيناها ·· اصطدمت رأسها بالأرض ·· رحمها الله باغماءه ·· أفاقت بعدهـــا تصك خديها وتقطع شعرها ·· تولول وتصرخ ··ولولت كثيرا ·· ملأت الدنيا صراخا وعويلا ·· بح صوتها ·· اليوم تكبت صراخها ·· كفى أن يئن داخلها ويئن ·· الحـاضر أشد قسوة وضراوة ·· لحظات الحـاضر محسوبة ·· معدودة ·· تحياها مرغمة بمرارتها وكوارثها ···

هذه اللحظات تكتسح فكرها ·· تدمرهـــا ·· تشدها من أحلام الماضى ·· تمرغ وجهها فى وحل الحقيقة اللزج ·· تدق برأسهـا فى حجر الواقع الصلد ·· تحطم الصارى فهوت الخيمة عليهما ·· وأيا كان وجـه الموت ·· ومهما كانت بشاعته الا أنه راحـة من الحياة ·· استراح الزوج وترك أنثيته لصدمات العيش وعبث الأقدار ·· أودع فى قلب الزوجة حسرة على شبابه وشبابها ·· انتقل فى هدوء الى دار الآخرة لينتقلا الى هذه الغرفة البالية ·· ليت توقفت عقارب الزمن وما حانت لحظة الموت ·· لم تجد حولها الا وليدتها المسكينة ·· أطلت فى عينيها لتستمد منهما الصبر والأمل ·· قدر أن تكون لها الأب والأم ·· عليها أن تحوطهـا بالرعاية والدفء · وأن تسعى لجلب الرزق ·· وماذا تعمل الا ما علمته الطبيعة للأنثى ·· وجعلت تتنقل من بيت لبيت لتزيل الأدران من ملابس الآخرين ·· وقد نأت بعملها عن مكان سكنها صونا لماء وجهها ·· وما كانت تدرى أن للأيام براثن وأنياب تنهش وتمزق بلا رحمة ·· ففى كل بيت شيطان يغرى ويغوى ·· وفى كل مرة كانت تدفع غوائل الشـــهوات الجائعة وترد سهام العيون النهمة بابتسامة رسمتها على شفتيها ·· رغبـــة فى اقتناص لقمة العيش ·

الرياح تعصف بالخارج .. سكتت الابنة عن الأنين قليلا .. وضعت راحتها على بطنها .

ـ آه منك وآه عليك أيها الوليد .. لن ترحمك قذائف النظرات الساخرة .

الحقيقة كامنة فى غرفة السطح .. لن تخبو طويلا .. فبعد ساعات ستتجسد فى هذا الوليد .. عفت الألسنة أن تلوكها لحين أن تلد الحقيقة .. وأبدا ما رحمتها العيون .. كم عرتها .. كم أهانتها وفتكت بكرامتها .

ـ لا .. لن ينالوا منك يا وليدى .. لن تمسك عيونهم .. سأصرعك .. سأحبس أنفاسك بيدى هاتين .

اتسعت عيناها وازرق وجهها .. وحش الآلام ينهش أحشاءها .. الطبيعة هائجة تزمجر .. والأشياء تصطك ... صرخاتها تتوقف فى حلقها فيزيد من آلامها ولوعتها .. سفحت عيناها بقايا دموع .

ـ لو توافيك المنية يا وليدى لاسترحت .. وأرحت .

الأم هاربة من الحاضر .. صور الماضى ما زالت تتألق فى مخيلتها .. خدعها البعض بالزواج .. لم ينطل عليها .. لم ينخدع الصيد .. كان يقظا .. وكان يعرف أن القصد ذبحه وتصفية دماءه .. كم حقدت على جمالها وفتنتها .. تمنت لو خلقها الله دميمة لتأمن شرهم .. تطلعت ذات مرة فى كسرة مرآتها .. رأت فى وجهها غضون حفرتها السنين والهموم .. وخديها باهتين .. كانا ناضرين .. تذكرت راحلها .. تنهدت من أعماقها ...

لم تهدأ أوجاع الابنة ·· احتـدت آلامها ·· ضـاقت بها الحجرة ·· الجدران تكاد أن تنطبق فوق رأسها ·· نظرت الى أمها ·· ما زالت غارقة فى ماضيها ·· نظرت الى الباب فى لوعة ·· لو تصرخ فتهدأ آلامهـــا ·· أو تنطلق الى الخارج فتلتقط أنفاسها ·· فى الخارج الجحيم بعينه ·· خافت أن يغلبها الصراخ ·· زحفت الى الأريكة العتيقة ـ التقطت خرقة من فوقهـا ·· حشرتها فى فمها ·· صورة أخـرى قفزت فى مخيلة الأم ·· كانت ماضية فى عملها حين اقتحم المكان رب البيت المتزن الوقور ·· لم يكن فى هذا الموقف متزنا ولا وقورا ·· فضحته عينـــاه النهمتان ·· دار بينهما حـوار لن تنساه ·· بيد مرتعشة قدم لها ورقة مالية ·· أنفاسه الحارة تلفح عنقها ·· ابتسامة الذئب على شفتيه ارتعشتين ·· ردت يده ·· أزاحته ·· ألح عليها ·· استعطفها ·· استرحمها ·· كاد أن يقبل يدها ·· ولعله انحنى ليقبل قدمها فسقطت نظارته فى وعاء الغسيل ·· تجهم وجهه ·· انتصب ·· أنفاسه تتلاحق ·· كشر عن أنيابه ·· التفت الى الباب ·· أدركت ما يجول فى خاطره ·· امتدت يده نحو الباب ليغلقه ·· لم تمهله فهجمت على يده ·· غرست فيها أسنانه ·· كبت ألمه وكتم صرخته ·· انقلب الى وحش كاسر ·· انطلقت من الحمام الى صالة البيت ·· لم يضيع الفرصة ·· جرى وراءها ·· لحق بها ·· انقض عليها ·· فلتت من تحته فهوى على الأرض ·· قبضت أصابعه كم جلبابها ·· آلمتها أظافره ·· قفزت فى الناحية المضادة فتمزق كمها وانخلع فى يده ·· عريت يدها وكتفها ·· أطلقت ساقيها الى الخارج ·· فرت منه ومن المنزل دون أجرها ·· وكان غداءها كسرة خبز وعشاءها نوما قلقا ·

علا أنين الابنة رغما عنهـا ·· اصـطدم رأس الأم بصخرة الحاضر ·· التفتت ناحيتهـا والشرر يقـدح من عينيها ·· قامت

اليها ثائرة .. جاء قصف الرعد يرسل الرعب .. اهتزت جدران الغرفة .. وقفت الأم الثائرة .. الرياح ترج الباب رجا ... تطلعت الى شرخ الجدار الغائر .. ذبالة المصباح ترتعش .. وكأن للمصباح قلبا يحس ويتألم ..

– لو تقتلع الرياح الحجرة .. ويبتلعنا السحاب .. ليتك ما كبرت .. وما ورثت جمالى .. فجمال الفقراء نقمة عليهم .. لو لم تصرى على الخروج لمساعدتى .. ليتنى رفضت خطيبك .. ولعشت عانسا .. ليتنى مزقته قبل أن يفتك بك .. يا حسرتى لقـــد نشل الجوهرة .. حنث فى وعـده .. خان ثم هرب .. ذاغ منا فى الزحام ...

الساعات تهـــرول .. الرعد يقصف .. والبرق يخطف الأبصـــار .. والعاصفة على أشدها تصارع الأشجار .. والأشياء تتدحرج وتتصادم وتتكسر .. الابنة أصابها الاعياء .. انكفأت على الأريكة .. وقعت الخرقة من فمها .. جرت الأم اليها .. عدلتها على ظهرها .. غطتها بالملاءة البالية .. دثرتهـــا بكل الخرق .. وجـه الابنـة قطعـة من الأسى .. خصـلات شعرها ملتصقة بجبهتها وخديها .. ذبالة المصباح تواصل ارتعاشها .. الآلام سكين يمزق أحشاء الابنة .. بأصابعها المتشنجة لمت قطعة كبيرة من غطائها .. دستها فى فمها .. برقت عيناها واتسعت .. انتفخت كل عروقها .. قفزت الأم .. جثت على ركبتيها .. مدت يدها تحت الملاءة كأنما ستتلقى وثيقة انقاذها من الموت .. أجزاء الطبيعـة تملأ الدنيـا صخبا .. صـدر الأم يعلو ويهبط وكذا ابنتها .. عينا الأم على مصـدر الوثيقة .. أخـذت الابنة نفسا عميقا .. توالت صرخاتها مكتومة .. خشنة .. متحشرجة .. أشبه بحشرجات الموت .. سكتت فجأة .. أسفرت الطـاقة

المحمومة عن مطر غزير .. تلقت يدا الأم رأس الوليد .. لم تطق صبرا فانتزعته بين لهثات الأم الصغيرة .. وأخيرا سقطت رأسها .. صوت الرعد كأنه طبول الشياطين .. نظرت الى شرخ الجدار .. فزعت كأن هناك عيون تترصدها .. لفت الوليد بعد أن قامت بعمل اللازم .. لم تلتفت اليه .. كانت عيناها على ابنتها .. وضعته بجانب أمه .

شردت الأم لكبيرة .. اتسعت عيناها .. عادت تسبلهما .. هزت رأسها نافية أفكارها الشيطانية .. تذكرت زوجها .. قرأت فى عينه نظرة احتجاج .. ليتها فقأت عين الخائن ... انقض الذئب على حملها .. لم يفد حذرها .. غافلها واقتنص روحها .

ـ الرحيل .. لا بديل عن الرحيل .

الناس نيام والمطر تشتد غزارته .. لن يسمع صوت الوليد الواهن .. مهما كان وهنه بالغد سوف يسمع .. وتفوح رائحة الفضيحة .. قامت الأم الكبيرة لتعد عدتها من أجل رحلة لا تعرف مستقرها ..

صحت الأم الصغيرة على بكاء وليدها .. اجترت أشق ذكرياتها وأكثرها مرارة .. مرت دقائق عدتها ساعات .. رأت المأساة بعينى خيالها .. برقت عيناها .. تشنجت يداها .. أدنت أصابعها من عنق الصغير الذى يصيح بجانبها .. سكت ونظر اليها .. لعله يتعرف عليها .. أو أنه يستحلفها أن تبقى حياته .. الرياح تزأر بشدة .. تدفع النافذة فتنفتح وترتطم بالحائط .. هجمت على المصباح فانطفأت الذبالة الواهنة .. فترت عزيمة الأم الصغيرة .. ارتخت يدها وسقطت بجانبها ..

كانت الأم قد جمعت كل ما ينفعهما فى مستقبل الأيام ·· وكانت صرة كبيرة حملتها فى يمناها ·· اقتربت من ابنتها ·· سمعت الابنة فحيحها ·· وضعت الأم الصرة على الأرض ·· سحبت الوليد وحملته على يسراها ·· فهمت الابنة ما انتوته أمها ·· قامت دون كلام ·· لفت نفسها بمساعدة أمها ·· وتقدمت الابنة ناحية الباب ·· التقطت الأم الصرة بيمناها ·· فى رهبة وحذر فتحت الابنة الباب ·· فاجأتها الأمطار ·· لسعت وجهيهما ·· الوليد ينعم بالدفء الذى يبثه صـــــدر جدته ·· لم يشعر بأسواط الأمطار ·· فقط كانت تملؤهما الرهبة والخوف ·· طغت دقات قلبيهما على كل الأصوات ·· قلب الوليد يدق فى رتابة ·· تحسست الأقدام الدرج ·· تشجعت بفضل سكوت الوليد ·· لعله أدرك حالهما ··

ودعا المنزل ·· قدماهما « تطرقع » فى المياه ·· الأمطار تهطل بوحشية ·· البرق ينير السماء والرعد يدب فى جنون ·· لا حديث الا أنفاس تتردد ·· وعيون تتلفت مذعورة ·· المرأتان كأنما يعيشان أحداث حلم مزعج ·· تنتقل قدميهما فى تثـاقل كأنها تسير فى الجحيم ·· الأم تحث ابنتها وتدفعها على الاسراع ·· كلما تباطأت الابنة تنهرها الأم بنظراتها النارية ·· الابنـة تنظر الى وليدها ثمرة سقطتيـا ·· واصـلا المسير ·· واصلت السماء أمطارها على رأسيهما ·· التصقت الملابس بجسديهما ·· تنزلق حبـــات المطر على وجه الابنـــة ·· تحلق بخيالهـــا فى المستقبل ·· المستقبل مظلم شديد السواد ·· غامض ·· الرهبة تتملكها ·· المجهول يفزعها ·· بزاويتى عينيها حاولت أن تنظـر لوليدها ·· أمها تخفيه ·· كم يسعد الأمهات بهذا اليوم ·· وكم

يكونوا كملائكة تتطلع اليها العيون وتتعلق بها ·· ما أشـــد أساها ·· لحقت بأمها ·· لعب لسانها هامسا :

ـ اعطنى اياه ·

لو تسنح الظروف لصفعت الأم ابنتها ولأوسعتهـا ضربا وركلا ·· ولمسحت بها الوحل ·· واصلت السير قبل أن ينفلت زمام أعصابها ·· الأم الصغيرة تفكر فى صغيرها ·· هل هـــو ذكر ·· ؟ ·· أم أنثى ؟؟ ·· بالطبع سيكون جميلا فاتنا مثلهـا ·· كم كان بودها أن تكحل عينيها بنظرة اليه قبل الوداع ·

ـ ألست أمه ·· ألم ألده منذ وقت قصير ؟

ـ بجانب أحد البيوت الشـــامخة انحنت الأم ووضـــعت الصغير ·· أدمعت عينا أمه ·

ـ عليك ألا تكف عن الصراخ والاستغاثة ·· ولا ريب ·· ستنال رحمتهم حين يجدوك وحدك ·

شعرت الابنـة بروحها تكاد أن تنفلت من جسـدها ··· لم تستطع المقاومة ·· اندفعت نحو الوليد ·· لم تمهلها يد الأم التى دفعتها فى صـــدرها ·· ثم أمسكت بتلابيبها ·· ضـاعت محاولات الابنة سدى ·· جرت الأم ابنتها جرا ·· سارا قليلا ·· الأم لا تستطيع أن ترى الطريق ·· الابنة تنظر الى وليدها ·· أوقفهما صياح الصغير ·· هرولت اليه الجدة قبل الأم ·· انحنيا عليه ·· نظرات والهة تسددها الأم الى صغيرها ·· بلغت روحها حلقومها ·· أصـدرت أنينا ملتاعا ·· عينـا الأم تصدر بريقا مخيفا وتدفع ابنتها فى قسوة بين فحيحها وتهديداتها ··

الابنة أشد عزما .. استطاعت أن تنتشل صغيرها وتعانقه .. ثم تنظر الى أمها فى لوعة .. وعيناها تقول فى صدق وتأثر :

ـ وما ذنب الصغير ؟؟

حين أشرقت الشمس .. وفى مكان آخر .. كانت المرأتان تحطوان بخطوات مترددة .. آملتين أن يجدا بين ربوعه الأمان .